هفوة العلماء...

ما أجمل وأرقَّ كلمات الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ وهو يعلّق على قولٍ لأبي إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللهُ إذْ يقول: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحقُّ أحبُّ إلينا منه، وكلُّ مَنْ عدا المعصوم فمأخوذٌ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نبيّن ما فيه». [مدارج السالكين (٢/٣٨)].

وقال في موضع آخر: «ولا توجب هذه الزلّة من شيخ الإسلام إهدارَ محاسنه، وإساءةَ الظنِّ به، فمَحِله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك المحلُّ الذي لا يُجهل، وكلُّ أحدٍ فمأخوذٌ من قوله ومتروك إلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، والكامل مَنْ عُدَّ خطؤه، ولا سيما في مثل هذا المجال الضّنك، والمُعترك الصعب، الذي زلَّت فيه أقدام، وضلَّت فيه أفهام، وافترقت بالسالكين فيه الطرقات، وأشرفوا ـ إلا أقلهم ـ على أودية الهلكات». [مدارج السالكين (١/٢١٦)].

كلماتٌ موجزةٌ بليغة ـ وما أكثرها ـ مِن عالم منصفٍ ينقدُ إماماً بعلم وأدبٍ، ويمكن أن نستخرج من هذين النَّصين جملةً من الفوائد في التعامل مع زلات وهفوات العلماء:

أولًا: حفظُ المكانة العلمية للعالم ـ فسمّاه: شيخ الإسلام ـ، والاعتراف بفضله وذكر محاسنه ومناقبه، ومعرفة قدره ومنزلته لا سيما في هذا الباب الذي زلَّت فيه أقدام الكثير.

ثانيًا: إحسان الظنِّ به، وعدم إساءته، أو توجيه الكلام إلى نيته ومقصده.

ثالثًا: نفي صفة القدسية عن قول العالم؛ فهو غير معصوم، وتأكيده على قاعدة: (كلٌّ يُؤخذ من قوله ويُرد إلا النبي ﷺ).

رابعًا: النظرة العامّة الشاملة لجهود العالم وأقواله، واستحضار إسهاماته العلمية، فإنْ أخطأ أو خالف في مسألةٍ أو أكثر؛ فإنَّ هذا لا يُبرر الحطَّ من مكانته، أو إهمال جهوده.

مَــن ذا الــذي مــا ســاء قَــط　　ومَــنْ لــه الحــســنــى فــقــط

خامسًا: التماس العذر له، وحملُ كلامه على أحسن المحامل إن كان ممكناً محتملاً، ومنع التأويل البعيد، أو حمل الكلام بما لا يحتمل..

سادسًا: بيان ما في قوله من خطأ أو مخالفة، ونقدُه بلا إساءة، وإيصال الحقِّ بألطف كلمة، وأرشق عبارة.

ويؤكد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ هذه المسألة أيضاً في موضع آخر، فيقول: «ومَنْ له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قَدَم صالحٌ وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهَفْوة والزَّلَّة، هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده؛ فلا يجوز أن يُتَبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين». [إعلام الموقعين (١/٦١)].

ما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه النصوص التي تبيّن وتوضح وتسلط الضوء على طريقة التعامل مع زلات العلماء، وكيف أن السابقين كانوا يعالجون الخطأ ويبينونه، ولكنهم يضعونه في ميزان العدل والإنصاف، لا ميزان الظلم والهوى، وأنهم إنما ينقدون **(القول)** لا **(القائل)**.

فحريٌ بنا اتباع منهجهم، والإفادة من طريقتهم، فالنقد العلمي البنّاء: سنّة العلماء الأولين، والنقد اللاذع والجفاء: بدعةُ المتأخرين.

✍ يعقوب طالب العبد الهادي
٢٤ جمادى الآخرة ١٤٤٣ هـ
الكويت